العقل في الميزان

عبدالأمير عبدالرضا حسن

جامعة ذي قار- كلية التربية- قسم اللغة العربية

خلاصة البحث :
انصب البحث على دور العقل في حياة البشرية من خلال ما طرحه العلامة الطباطبائي في تفسيره الموسوم ب (الميزان في تفسير القرآن) حيث بدأنا البحث بتمهيد ثم تناولنا التعريف اللغوي والاصطلاحي لكلمة (عقل) بعد ذلك تتبعنا المواطن التي تعرض لها صاحب الميزان حول دور العقل في إدراك المعارف القرآنية، حيث لا تعارض بين استخدام العقل وبين التفسير بالرأي الذي ذمته الشريعة ومنعت منه، ثم عرجنا على مبحث العلم ومنزلته من وجهة نظر الإسلام، لنناقش بعده إمكانية الاستفادة من نتائج العلم التجريبي في التفسير ومدى انسجامه مع القرآن الكريم.

تمهيد:

اعتبر الإسلام العقل من أشرف وأسمى القوى في الوجود الإنساني، فقد ورد في الحديث القدسي:

((إن الله لما خلق العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال تعالى :وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً هو أكرم عليّ منك، بك أثيب وبك أعاقب وبك آخذ وبك أعطي)).[i]

وفي رواية أخرى جعله عدلاً للحجّة التي يحتج بها الله على عباده الذين هم الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام:

((انّ لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة، وأما الباطنة فالعقول)).[ii]

ولكن مع هذه القدسية التي أضفيت على العقل ومع هذه المساحة التي أعطيت له، نتساءل إلى أي مدى يمكن للعقل أن يمتدّ؟ هل يمكن أن يوازي الشرع في اصدار الأحكام؟ أم أنّه لا يجوز استخدام العقل الا في حدود معينة من جهة المصدر؟

لقد كثرت الدراسات التي تناولت درجة استخدام العقل، خاصة في أبحاث علم أصول الفقه((فقد شهد تاريخ التفكير الفقهي اتجاهين متعارضين في هذه النقطة كل التعارض، يدعو أحدهما الى اتخاذ العقل في نطاقه الواسع الذي يشمل الإدراكات الناقصة وسيلة رئيسية للإثبات في مختلف المجالات التي يمارسها الأصولي والفقيه، والآخر يشجب العقل ويجرّده إطلاقاً عن وصفه وسيلة رئيسية للإثبات، ويعتبر البيان الشرعي هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن استخدامها في عمليات الإستنباط)).[iii]

ومردّ الإتجاه الأول يرجع الى نشأة مدرسة الرأي والاجتهاد في أواسط القرن الثاني الهجري التي تدعو الى استخدام العقل بالمعنى الواسع الذي يشمل الترجيح والظن والرأي الشخصي كأدوات رئيسية للإثبات الى جانب البيان الشرعي.

وهذا اللون من استخدام العقل اعتبر مصدراً من مصادر الفقه التي يعوّل عليها في استنباط الأحكام الشرعية، وكان على رأس هذه المدرسة الإمام أبو حنيفة بن النعمان (ت 150).

أما الاتجاه الآخر الذي أنكر العقل وترعرع في أحضان الفكر الإمامي، فقد كان على رأسه جماعة من علماء الإمامية، وهم الأخباريون والمحدثون حيث دعوا الى الاقتصار على البيان الشرعي دون العقل الذي هو في معرض الخطأ، فلم يعد العقل وسيلة مستقلة صالحة لإثبات أي حكم من الأحكام.

ان أبرز من رفع لواء هذا الإتجاه هو المحدّث محمد أمين الإسترآبادي (ت 1023) صاحب كتاب الفوائد المدنية، وتبعه على ذلك آخرون خاضوا صراعا ضدّ من دعا الى الإحتهاد عند الإمامية، ولسنا هنا في مقام التحليل والنقد لهذين الإتجاهين اللذين وجهت اليهما كثيرا من الإنتقادات وردود الأفعال.

فالإتجاه الأول أطلق العنان للعقل، وشكّل ذلك خطراً كثيراً على النص الشرعي، والاتجاه الآخر قضى على العقل وجرّده من كثير من صلاحياته، وأوقف حركة العقل بدعوى الحفاظ على النص والحرص على الكتاب والسنة، وهذا ما يختلف مع اتجاه مدرسة أهل البيت النبي (ع) حيث واجه ائمة أهل البيت (ع) هذه الإتجاهات المتطرفة، وحاربوا الإتجاه العقلي المتطرف، وأكدوا في نفس الوقت على دور العقل وضرورة الإعتماد

عليه في الحدود الشرعية الى جانب البيان الشرعي.

العقل لغةً:

قال ابن الفارسي في مقاييس اللغة: "العين والقاف واللام أصل واحد مقاس مطّرد، يدلّ عظمه على حبسة في الشيء أو ما يقارب الحبسة، ومن ذلك العقل و هو الحابس عن ذميم القول والفعل.

قال الخليل: العقل نقيض الجهل، يقال: عَقَل يعقل عقلاً، إذا عرف ما كان يجهله قبل، أو انزجر عما كان يفعله، وجمعه عقول.

ورجل عاقل، وقوم عقلاء وعاقلون، ورجل عقول إذا كان حسن الفهم وافر العقل، وماله معقول أي عقل".[iv]

وفي مجمع البحرين: "العاقل هو الذي يحبس نفسه ويردها عن هواها، ومن هذا قولهم: اعتقل لسان فلان إذا حبس ومنع من الكلام ... وفي الحديث (العقل غطاء ستير) أي يستر العيوب الصادرة من الإنسان".[v]

العقل إصطلاحاً:

ذكر العلماء عدّة تقسيمات للعقل، وذكروا لكل قسم تعريفاً، فقد حدّدها الدكتور الفضلي في أربعة أقسام هي كالتالي:

1_ العقل الشرعي، وهو ما يميز به بين الحق والباطل والصواب من الخطأ، وهو الذي يؤخذ مناطاً شرطاً في التكاليف الشرعية وتترتب عليه الأحكام القانونية في التشريع الوضعي.

والعقل هنا هو المقصود في الروايات التي منها رواية الإمام محمد الباقر عليه السلام:(لمّا خلق الله العقل استنطقه، ثمّ قال له: أقبل فأقبل ثمّ قال له: أدبر فأدبر، ثم قال وعزّتي وجلالي ... " الى آخر الحديث.
2_ العقل الفلسفي، وهو العقل الذي يقول ببداهة المبادئ العقلية (الفلسفية) التي يتفق عليها العقلاء، كمبدأ العلية ومبدأ عدم التناقض واستحالة الدور. وعلى ذلك يقوم المنهج العقلي الذي يتخذ من الدرس الفلسفي مجالاً له.
3_ العقل الإجتماعي، وهو ما يحصل من توافق آراء العقلاء في كل زمان ومكان على جملة من المبادئ العقلية، كقبح الظلم وحسن العدل واقتضاء الأمر بالشيء النهي عن ضدّه، وهو ما يطلق عليه في لغة أصول الفقه بسيرة العقلاء.
4_ العقل الخلقي، سمّي بذلك نسبة الى الأخلاق، حيث يقسمه علماء الأخلاق الى قسمين:
أ_ العقل النظري وينصبّ على الإدراك والمعرفة، أي ما ينبغي أن يعلم.
ب_ العقل العملي وينصبّ على الأخلاق والسلوك، أي ما ينبغي أن يعمل.
وأمّا في الفلسفة الحديثة فقد ذهب كانت (kant) في كتابه (نقد العقل المحض) إلى أنّ " كلّ

معرفتنا تبدأ من الحواسّ ثمّ تنتقل إلى الذهن، وتنتهي في العقل. وليس فينا ما هو أسمى من العقل لمعالجة مادة العيان وردّها الى الوحدة العليا للفكر ".[vi]
وهذه النظرية هي نظرية الفلاسفة الإسلاميين والذي أطلق عليها السيد الشهيد محمد باقر الصدر عنوان (نظرية الإنتزاع) في كتاب فلسفتنا.[vii]
وللتوسع حول هذه النظرية يراجع الكتاب المذكور أعلاه.[viii]
العقل عند الطباطبائي
اعتبر صاحب التفسير الميزان العقل من أشرف قوى الوجود الإنساني، فقط دعا القرآن الكريم الناس الى الإستفادة من العقل في أكثر من 300 مورد، فالحياة الإنسانية قائمة على أساس الفكر، وهي لا تتم بالإدراك الذي يسمى فكراً، فكلما كان الفكر الإنساني صحيحاً كانت الحياة أقوم، فالحياة القيمة ترتبط بوجود الفكر القيم وتبتني عليه.
وقد دعا القرآن الكريم الى الفكر الصحيح وسلوك طريق العلم بأساليب متنوعة وطرق مختلفة كقوله تعالى:
((أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها)).[ix]
((قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)).[x]
((يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)).[xi]
((فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)).[xii]
وقد ذكر القران أنّ من يهدي اليه هو أحد الطرق الفكرية، قال تعالى:
((إنّ هذا القران يهدي للتي هي أقوم)).[xiii]
أي أنه يهدي للطريقة التي هي أقوم، وحيوية هذه الطريقة تتوقف على كون الفكر أقوم.
وقال تعالى:
((يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور بإذنه ويهديهم الى صراط مستقيم)).[xiv]
والصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اختلاف فيه ولا تناقض، ولذلك لم يحدد القرآن الكريم طريقاً خاصاً للفكر الصحيح القيم الذي دعا اليه، إلاّ أنه أحال فيه الى ما يعرفه الناس بحسب إدراكاتهم الفطرية المرتكزة في نفوسهم، فهناك الآيات الكثيرة التي تدعو الناس الى التفكر والتعقل والتدبر أو تلقن النبي (ص) الحجة لاثبات حق أو ابطال باطل، كقوله تعالى:
((قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه))[xv]

أو يحكي الحجة عن أنبيائه وأوليائه كنوح وابراهيم وموسى وسائر الأنبياء عليهم السلام ولقمان ومؤمن آل فرعون وغيرهما كقوله تعالى:
((قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السماوات والأرض)).[xvi]
((وإذ قال لقمان لإبنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إنَّ الشرك لظلم عظيم)).[xvii]
وقوله عن مؤمن آل فرعون:
((وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)).[xviii]
وقوله حكاية عن سحرة قوم فرعون:
((قالوا لن نؤثرك على ما جائنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما انت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا)).[xix]

ويرى العلامة الطباطبائي رحمه الله بأنّ الله لم يأمر عباده في الكتاب ولو في آية واحدة أن يؤمنوا به ولا بشيء مما أمر به على سبيل العمى وبشكل لا شعوري، حتى أنه أوضح لهم علل الشرائع والأحكام التي لا سبيل للعقل اليهما إلا بتفاصيل ملاكاته_ بأمور تجري مجرى الإحتجاجات، كقوله تعالى:
((إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر)).[xx]
وقوله تبارك وتعالى:
((ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون)).[xxi]
ثم يشير الى أن طريق الفكر الذي يدعو اليه القران هو الذي ينسجم مع المرتكزات الفطرية للإنسان، فهو يقول:
(وهذا الإدراك العقلي _ أعني طريق الفكر الصحيح الذي يحيل اليه القران الكريم ويبني على تصديقه ما يدعو اليه من حق أو خير أو نفع، ويزجر عنه من باطل أو شر أو ضر_ انما هذا الذي نعرفه بالخلقة والفطرة مما لا يتغير ولا يتبدّل، ولا يتنازع فيه إنسان وإنسان، ولا يختلف فيه اثنان، وأنّ أي اختلاف ومنازعة فهو من قبيل المشاجرة في البديهيات ينتهي الى عدم تصور أحد المتشاجرين أو كليهما حقّ المعنى المتشاجر فيه لعدم التفاهم الصحيح).
وأما هذا الطريق الذي نعرفه بحسب فطرتنا الإنسانية ما هو؟
فلئن شككنا في شيء لسنا نشك أنّ هنا حقائق خارجية واقعية مستقلة منفكّة عن أعمالنا كمسائل المبدأ والمعاد، ومسائل رياضية وطبيعية اذا أردنا نحصل عليها حصولاً يقيناً استرحنا الى ذلك في قضايا أولية بديهية غير قابلة للشك وأخرى تلزمها لزوماً كذلك، ونرتبها ترتيباً فكرياً خاصاً نستنتج منها ما نطلبه[xxii] كقولنا:

أ.ب ، وكل ب.ج، ف أ.ج. وكقولنا: لو كان أ.ب، فج.د، ولو كان ج.د ف ه.ز.
وهذه الأشكال من الأقيسة هي أمور بديهية لا يرتاب فيها ذو فطرة سليمة، اللهم إلا إذا كان لديه آفة عقلية أو اختلاط في الفهم أدى الى عدم تعقله لهذه الأمور البديهية، بأن يأخذ مفهوما تصوريا أو تصديقيا آخر مكان التصور أو التصديق البديهي، وهذا ما يحصل غالبا لمن يشكك بالبديهيات.
إشكالات المعترضين على السلوك المنطقي والعقلي:
إن أكثر هذه الإشكالات طرحت من قبل المتكلمين والمحدِثين والأخباريين ، وقد أشرنا في المقدمة إلى وجود اتجاهين تبنى أحدهما العقل في أوسع مجالاته بحيث شمل إدراكاته الناقصة وجعلها وسيلة رئيسية للإثبات، والآخر شجبه وجرده عن كونه وسيلة رئيسية للإثبات. على أن هناك اتجاها آخر مثلته مدرسة أهل البيت عليهم السلام، حيث واجه أهل البيت هذه الاتجاهات المتطرفة وأكدوا في الوقت ذاته على دور العقل وضرورة الاعتماد عليه إلى جانب البيان الشرعي.
وأهم تلك الإشكالات التي أوردها أصحاب الاتجاه المناوئ لسلوك الطريق العقلي والمنطقي هي:
1- ما قاله بعض المتكلمين:((لو كان المنطق طريقا موصلا، لو يقع الاختلاف بين أهل المنطق، لكنا نجدهم مختلفين في آرائهم)).
وجوابه: أنه قد استعمل القائل هنا القياس الاستثنائي من حيث لا يشعر، وقد غفل عن كون المنطق وسيلة لعصمة الذهن عن الوقوع في الخطأ في الفكر إنما يكون ذلك عند مراعاة المنطقي للقواعد المنطقية واستعمالها استعمالا صحيحا. ولا يمكن أن يدعي إنسان بأن كل من يستعمل المنطق يكون استعماله صحيحا، فإن هذا كقولنا: إن السيف آلة للقطع لكن لا يقطع إلا عن استعمال صحيح له.
2- ((إن هذه القوانين دونت ثم كملت تدريجيا فكيف يبتني عليها ثبوت الحقائق الواقعية، وكيف يمكن إصابة الواقع لمن لم يعرفها أو لم يستعملها؟)).
وجوابه: أن هذا أيضا قياس استثنائي، وهو من أسوأ المغالطات، فقد اشتبه عليه معنى التدوين، فإن التدوين هنا ليس بمعنى الإيجاد وإنما له خصوصية الكشف التفصيلي عن قواعد معلومة للإنسان بالفطرة إجمالا.
والى هنا يصف لنا العلامة الطباطبائي الدور السامي للعقل، أما عن مستوى ادراك العقل لحقائق الوحي والى أي حد يمكنه استيعابها؟
فقد ذهب العلامة خلافا لبعض المفسرين الى أنّ العقل يمكنه إدراك حقائق الوحي على نحو

الإستقلال وبصورة منفصلة، ويمكن استنتاج ذلك من بعض أبحاث العلامة المتعلّقة بهذا الموضوع، وخصوصاً في البحث عن دور الحديث في تفسير القرآن الكريم، وتحديداً في مبحث التفسير بالرأي الذي يعتبره البعض أنّه التفسير العقلي ليس إلاّ!
يعتقد العلامة بأنّ الآيات من قبيل آية ((أفلا يتدبرون القرآن))[xxiii] تدلّ بصراحة على أنّ المعارف القرانية يمكن أن يحصل عليها الباحث بالتدبر والبحث، ويرتفع به ما يتراءى من الإختلاف بين الآيات. والآية في مقام التحدّي، ولا معنى لإرجاع فهم معاني الآيات_والمقام هذا المقام _ الى فهم الصحابة وتلامذتهم من التابعين، بل حتى الى بيان النبي (ص) فإنّ ما بيّنه إما أن يكون معنى يوافق ظاهر الكلام فهو مما يؤدي اليه اللفظ ولو بعد

التدبر والتأمل والبحث، وإما لا يكون معنى لا يوافق الظاهر ولا أنّ الكلام يؤدّي اليه فهو مما لا يلائم التحدّي ولا تتمّ به الحجة، وهو ظاهر.[xxiv]
ثمّ يستدرك العلاّمة رحمه الله قائلاً:
" نعم، تفاصيل الأحكام مما لا سبيل الى تلقّيه من غير النبي (ص) كما أرجعها القرآن اليه في قوله تعالى:
((وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)).[xxv]
وما في معناه من الآيات وكذلك تفاصيل القصص والمعاد مثلاً.[xxvi]
وبناءاً على ذلك يمكن إدراك مقاصد الوحي المتعلّقة بالمكلّفين عن طريق العقل.
نعم، البعض منها يمكن إدراكه بصورة مباشرة والبعض الآخر عن طريق مبلّغ الوحي.[xxvii]
ثمّ يستظهر العلامة من عدد من الآيات من قبيل قوله تعالى:
((وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزّل اليهم)).[xxviii]
وقوله تعالى:
((ويعلمهم الكتاب والحكمة)).[xxix]
أنّ دور النبي (ص) في هذا المقام هو التعليم فقط، وأنّ التعليم إنما هو هداية المعلم الخبير ذهن المتعلم وإرشاده الى ما يصعب عليه العلم به والحصول عليها، لا ما يمتنع فهمه من غير تعليم، فإنّما التعليم تسهيل للطريق وتقريب للمقصد لا ايجاد للطريق وخلق للمقصد، والمعلم إنّما يروم تقريب المطالب العلمية على نحو يستسهله ذهن المعلم ويأنس به فلا يلقى صعوبة في الترتيب أو يشرف على الغلط في المعرفة.
واستفاد من الأخبار المتواترة عن النبي صلى الله عليه وآله_ والتي تحثّ على التمسك بالقران وعرض الروايات المنقولة عنه (ص) على كتاب الله_ أنّه لا يستقيم معناها إلاّ مع كون جميع ما

نقل عن النبي (ص) ممّا يمكنه استفادته من الكتاب.
ولو توقف ذلك على بيان النبي صلى الله عليه وآله للزم الدور، وهو ظاهر.
أمّا ما قد يشكل به في ما جاء من مضمون حديث الثقلين _ الذي رواه الفريقان بطرق متواترة عن جمّ غفير من الصحابة _ في أنّ الحديث يدلّ على حجّية قول أهل البيت عليهم السلام في القرآن ووجوب اتباع ما ورد عنهم في تفسيره والإقتصار على ذلك وإلاّ لزم التفرقة بينهم وبينه.
فقد أجاب العلامة بما مرّ آنفاً في معنى اتباع النبي(ص)، هو ينطبق على هذا المورد أيضاً، وأنّ حديث الثقلين غير مسوق لإبطال حجية ظاهر القرآن وقصر الحجية على ظاهر بيان أهل البيت (ع). كيف! وهو صلّى الله عليه وآله يقول: (لن يفترقا) ويجعل الحجية لهما معاً.
فللقرآن الدلالة على معانيه والكشف عن المعارف الإلهية، ولأهل البيت الدلالة على الطريق وهداية الناس الى أغراضه ومقاصده.[xxx]
ومن استدلال الأئمة عليهم السلام بآية على آية والإستشهاد بمعنى على معنى دليل على أنّ معاني القرآن مما يمكن أن يستوعبها المخاطب ويستقلّ بها ذهنه وعقله.
وهذا التعقل و التدبّر _ عند الطباطبائي _ والذي دعا اليه القرآن يبتني على أصول منطقية، وقد دافع عن هذا الطراز من التفكّر في قبال من قال:
إنّ هذه الأصول إنّما روجت بين الناس لسدّ باب أهل البيت أو لصرف الناس عن إتّباع الكتاب والسنّة فيجب على المسلمين اجتنابها. وقول بعضهم: إنّ السلوك العقلي ربما انتهى بسالكه إلى ما يخالف صريح الكتاب والسنة كما نرى في آراء كثير من المتفلسفين ... وقول بعضهم:إنّ جميع ما تحتاج اليه النفوس الإنسانية مخزون في الكتاب العزيز، مودع في أخبار أهل العصمة عليهم السلام، فما حاجة إلى آسار الكفار والملاحدة؟
وقد أجاب العلامة الطباطبائي عن هذه التصورات قائلاً:
"إنّ الحاجة اليها عين الحاجة التي تشاهد في هذا الكلام بعينه ... وإنّ عدم حاجة الكتاب والسنة واستغناؤهما عن ضميمة تنضمّ اليهما من غير عدم حاجة المتمسّك بهما والمتعاطي لهما، وفيه المغالطة، وما مثل هؤلاء إلا كمثل الطبيب الباحث عن بدن الإنسان لو ادّعى الاستغناء عن تعلّم العلوم الطبيعية والاجتماعية والأدبية، لأنّ الجميع متعلق بالإنسان ... وأنّ الكتاب والسنة هم الداعيان الى التوسّع في استعمال الطرق العقلية الصحيحة، وليست إلاّ المقدمات البديهية أو المستندة الى البديهة".[xxxi]

ثمّ يذكر إشكالاً يرد على التفكير المنطقي، وحاصله:
" إنّ هناك طريقين: طريق المنطق وطريق التذكر بإتّباع الشرع مثلاً، والطريقان سواء في الإصابة أو أنّ طريق التذكر أفضل وأولى لإصابته دائماً، ولموافقته قول المعصوم بخلاف طريق المنطق والعقل، ففيه خطر الوقوع في الغلط دائماً أوغالباً "[xxxii]

ويردّ هذا الإشكال بأنّ الإحاطة بجميع مقاصد الكتاب والسنة ورموزها وأسرارها على سعة نطاقها العجيب غير متأتّ إلا للآحاد من الناس المتوغلين في التدبر في المعارف الدينية، على ما فيها من الإرتباط العجيب والتداخل البالغ بين أصولها وفروعها وما يتعلق منها بالاعتقاد وما يتعلّق منها بالأعمال الفردية والإجتماعية، ومن المحال أن يكلف الإنسان تكويناً بالتجهيز التكويني بما وراء طاقته واستطاعته أو يكلف بذلك تشريعاً.
فليس على الناس أن يعقلوا مقاصد الدين بما هو الطريق المألوف في شؤون حياتهم الفردية والاجتماعية وهو ترتيب المعلومات لقيام البرهان على صدقه.[xxxiii]
ويستفاد من هذا الكلام بأنّ العلامة الطباطبائي يقبل التفكير المنطقي في تفسيره الميزان.
التفسير بالرأي
هناك الكثير من الروايات الواردة عن الفريقين تذمّ التفسير بالرأي، وبعض المفسرين عدّ التفسير العقلي مصداقاً للتفسير بالرأي، وحصر تفسير القرآن بالمأثور من الروايات.
زقد ردّ العلامة الطباطبائي ما استنتجه غيره من الروايات التي وردت في النهي عن التفسير بالرأي وعدم اعتماد التفسير العقلي، فمن المعلوم أنّه يرد في القرآن النهي عن مطلق الإجتهاد ليدلّ ذلك بالملازمة على ما ذهب اليه الاخباريون، وكيف لا نقبل كلام الاخباريين هنا في حين أنّ هناك آيات قرآنية كثيرة أكدت أن القرآن نزل بلسان عربي مبين وواضح، ودعا الى التدبّر والتفكر، وكذلك أهل البيت عليهم السلام وفي روايات عديدة أمروا بالرجوع الى القرآن الكريم وعرض الروايات عليه[xxxiv] والأخذ بما وافقه والاعراض عما خالفه .
منزلة العلم في الإسلام:
ما هي درجة اعتبار العلم ونتائجه؟
ليس هناك رأي مجمع عليه بين علماء الإسلام ومفكريه حول هذا الموضوع والبعض يشكّك في أصل اعتباره. والبعض اعتبره في حدود معينة. أمّا العلامة فقد قال بإعتبار العلم ونتائجه، فالعقائد

التي يحصل الإنسان أو لها جنبة فكرية أو عقلية والتي لا ترتبط بشكل مباشر بالعمل، مثل المسائل الرياضية والعلوم الطبيعية والمسائل المتعلقة بما وراء الطبيعة _ عالم المجردات _ أو لها جنبة علمية، فمن الإستدلالات العقلية أو الحسية.[xxxv]
فهو يرى أنّ العلم هو المصباح المنير، أمّا مساحة ذلك المصباح فيضع لها حدّاً محدوداً فهو لا يغفل عن محدودية العلم. يقول:
صحيح أنّ العلوم الطبيعية مصابيح منيرة قد كشفت الكثير من المجهولات للإنسان وأثارت له حياته، لكنه ليس المصباح الوحيد الذي يكشف كل ظلمة، فإنّ علوم ما وراء الطبيعة والمباحث المعنوية والروحية أجنبية عنه، ولا يستطيع أن يبحث في المقاصد التي يكشفها الإنسان في فطرته.
ويعتقد العلاّمة أنّ القران الكريم بدعوته الى العلم، امتاز عن سائر الأديان، وهذه الدعوة القرآنية تارة تظهر على نحو التفصيل وأخرى على نحو الإجمال في كثير من الآيات.
الإستفادة من نتائج العلم التجريبي في التفسير:
قد يستفيد العلامة الطباطبائي في بعض الأبحاث العلمية في الاستنتاجات العلمية التي تنسجم مع الظاهر الآيات القرآنية، ففي تفسير الآية:
((إنّ في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب...)).[xxxvi]
يشير الى ما حققه العلم الحديث حول الأجرام السماوية المختلفة.[xxxvii]
وفي تفسير الآية:
((وجعل القمر فيهنّ نوراً وجعل الشمس سراجاً)).[xxxviii]
وفي معرض بيانه لمفهوم النور والسراج يشير الى حقيقة علمية، وهي أنَّ " كون القمر نوراً هو كونه منوراً لأرضنا بنور مكتسب من الشمس، فليس منوّراً بنفسه حتّى يعدّ سراجا".[xxxix]
وفي تفسير الآيات المتعلقة باختلاف الليل والنهار وبيان علة ذلك الإختلاف يطرح بعض المباحث العلمية تارة بنحو مختصر وتارة بتفصيل أكثر، وأحياناً يرجع القارئ الى الكتب العلمية.ففي تفسير الآية:
((والشمس تجري لمستقرٍّ لها)).[xl]
يقول: " وأمّا جريها _ أي الشمس _ وهو حركتها، فظاهر النظر الحسي يثبت لها حركة دورية حول الأرض، لكن الأبحاث العلمية تقضي بالعكس وتكشف لها أنّ مع سيارتها حركة انتقالية نحو النسر الواقع".[xli]
ونجد في مواضع متعددة من تفسيره يستند في تأييد آرائه الى ما توصل اليه علم الإجتماع وعلم النبات وأبحاث علوم الجغرافيا وعلم طبقات الأرض والهيأة وعلم الحيوان.

ففي تفسير الآية:

((وما يستوي البحران هذا عذبٌ فراتٌ سائغ شرابه وهذا ملحٌ أجاجٌ ومن كلٍّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها)).[xlii]
يستند في صحة ما ذهب اليه الى دائرة المعارف العلمية فيقول:
قد ذكر وجود الحلية في الماء العذب في مادة صدف في دائرة المعارف للبستاني. وذكر أيضاً في آمريكانا Eneyclo poedia وبريطانيا Eneycle poedia وجودها فيه، وسمّيت عدة من الأنهار العذبة في أمريكا وأوربا وآسيا، يستخرج منها اللؤلؤ".[xliii]
وفي ذيل الآية:
((والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم)).[xliv]
ذكر إنّ الاختلاف في صورة القمر آثار بارزة في البر والبحر وحياة الناس، وأرجع من يريد مزيد الإطلاع الى الأبحاث المتعلقة بذلك.[xlv]
الاستنتاجات التفسيرية ومسألة عدم انسجام القرآن مع العلم.
يعتقد العلامة بأن القران الكريم لا يخالف العلم، وفي تفسيره لأحدى الآيات يبدأ بذلك، ويرى أنّه المطابق لظاهر الآيات والروايات، ثمّ يبين أن هذا الكلام اليوم واضح البطلان، فلا بدّ من تلمس توجيه آخر للمسألة لا يكون فيه مخالفة للعلم وبناءً على هذه الملاحظة فإنّه يسعى جاهداً في رفع ما يبدو من اختلاف بين بعض الموارد القرآنية والنظريات العلمية.
لقد قسّم الطباطبائي النظريات العلمية الى مجموعتين: مسلّمات وفرضيات لم تثبت بعد، كما قسّم الآيات القرآنية الى مجموعتين: آيات تحمل أكثر من معنى، وآيات لها معنى واحد صريح.
وبناء على ذلك فإنّ صور التعارض ثلاث: المسلّمات العلمية المخالفة للنص القرآني القطعي، ومسلّمات علمية مخالفة للآيات القابلة للتأويل، وفرضيات علمية مخالفة للآيات القابلة للتأويل.
ويمكن استفادة هذا المعنى من كلامه في تفسيره لبعض الآيات الشريفة.
يقول: " ومن هذا المعنى بعض الروايات الأخر ويمكن تطبيق ما في الرواية وكذا مضامين الآيات على ما تسلّمه الأبحاث العلمية اليوم من خلق العالم وهيئته، غير أنّا تركنا ذلك احترازاً من تحديد الحقائق القرآنية بالأحداث والفرضيات العلمية ما دامت فرضية غير مقطوع بها من طريق البرهان العلمي". 46
خلاصة البحث
وقد تلخص من هذا البحث عدة نتائج هي كالتالي:
1- لابد من اختيار الطريق الوسط الذي

---

[1] عوالي اللآلئ: 4: 100:ح 142.
[2] الكافي 1: 16 ح11.
[3] المعالم الجديدة للأصول:43 _35.
4) مقاييس اللغة 4: 69.
5) مجمع البحرين 3: 223.
6) موسوعة الفلسفة 2: 74.
7) فلسفتنا ص 61 _62.
8) انظرأصول البحث للفضلي ص 32_ 35.
9) الأنعام: 122.
10) الزمر: 11.
11)المجادلة: 11.
12) الزمر:18.
13) الإسراء: 9.
14) المائدة: 16.
15) المائدة: 17.
16) ابراهيم: 10.
17) لقمان: 13 .
18) غافر: 28.
19) طه: 72.
20) العنكبوت: 45.
21) المائدة: 6.
22) الميزان 5: 255 _ 256.
23) سورة النساء: الآية 82.

24) انظر الميزان: 3: 84.
25) سورة الحشر: الآية 7.
26) الميزان: 3 :84.
27) انظر الوحي والقرآن: 64:
28) سورة النحل: 44.
29) سورة الجمعة: 2.
30) الميزان: 3: 85 وما بعدها.
31) الميزان: 5: 258.
32) نفس المصدر: 263.
33) الميزان: 5: 263.
34) الميزان: 3:76.
35) الميزان: 1:421.
36) سورة البقرة: الآية 164.
37) تفسير الميزان: 1: 395.
38) سورة نوح: الآية 16.
39) الميزان: 20: 32.
40) سورة يس: الآية 58.
41) الميزان 17: 89.
42) سورة فاطر: الآية 12.
43) الميزان: 17: هامش ص29.
44) سورة يس: الآية39.
45) الميزان 1: 95.
46) الميزان 1 :373.

المصادر

1) أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، قم _ ايران.
2) عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت _ لبنان.
3) عبد الهادي الفضلي، أصول البحث، نشر مؤسسة دار الكتاب الإسلامي، قم_ ايران.
4) فخر الدين الطر يحي، مجمع البحرين، تحقيق السيد أحمد الحسيني، نشر مكتب النشر الثقافة الإسلامية.
5) محمد باقر الصدر، المعالم الجديدة للأصول، نشر مكتبة النجاح، طهران _ ايران.
6) محمد باقر الصدر، فلسفتنا، الطبعة العاشرة، نشر دار الكتاب الإسلامي، قم _ ايران.
7) محمد بن علي بن إبراهيم،عوالي اللالئ، تحقيق مجتبى العراقي، مطبعة سيد الشهداء، قم _ ايران.
8) محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، الكافي، تحقيق علي أكبر غفاري، نشر دار الكتاب الإسلامي.
9) محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، 20 مجلد، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم _ ايران.